الأثر الديني
في الفن القبطي

من الأمور المتفق عليها حتى العصر الحاضر بين علماء الآثار والمؤرخين أن الفن القبطي إنما هو فن ديني مسيحي محض يعبر عن فن الأديرة والكنائس، مؤثراته دينية كما أن أغراضه دينية أيضاً، بمعنى أنه لم يتأثر بمؤثرات دنيوية وإنه لم يرم الى أغراض دنيوية (مدنية).

ويبدأ هذا الفن القبطي أو الفن البيزنطي في نظر هؤلاء العلماء منذ سنة ٣٩٥ ميلادية وقت أن أصبحت الديانة المسيحية ديناً رسمياً لمصر، ويستمر حتى سنة ٦٤٠ ميلادية، وهو وقت دخول العرب مصر.

ولكن إذا رجعنا إلى أصل كلمة قبطي وجدنا أنها في معناها ترادف كلمة مصري سواء بسواء، بمعنى أن جميع سكان وادي النيل كان يطلق عليهم قبل غزو الاسكندر الأكبر لمصر بمدة طويلة اللفظ اليوناني « ايجبتيوس » الذي حُرِّف بعد ذلك الى لفظ قبطي.

وهذا يقطع بأن كلمة قبطي لا علاقة لها إطلاقاً بالنزعة الدينية، بل كان لفظها يستعمل قبل دخول المسيحية مصر وفي عهد المسيحية وبعدها.

نخرج من هذا بنتيجة هامة وهي أن الفن القبطي كان فناً مصرياً قبل أن يكون فناً دينياً كما هو الرأي الشائع حتى الآن.

وبمجرد إعادة النظر في الآثار القبطية الموجودة بالمتحف القبطي، وفي باقي المتاحف المصرية، وكذلك في مختلف متاحف أوروبا وأمريكا، وفي الأسباب التي استند عليها العلماء في رأيهم السابق، وفي ما قام به العلماء من حفريات — يدلنا على إنهم مخطئون فيما يذهبون إليه، فقد خضع الفن القبطي كغيره من سائر الفنون لمؤثرات البيئة التي نشأ فيها وهذه المؤثرات منها ما هو ديني ومنها ما هو دنيوي، وهو ترجمان صادق للحياة المصرية في تلك الفترة من الزمن وما قبلها وما بعدها.

فمثلاً نجد في كثير من المقابر والمباني المدنية آثاراً بسيطة الى الدين المسيحي والمتدينين به ، فالمتحف القبطي زاخر بصور المرأة وبأدوات الزينة من مكاحل وأمشاط وحلى السيدات ، من ذلك الخلاخيل والأساور المحلاة برأس الثعبان (وهي العادة الفرعونية القديمة والمنتشرة حتى الآن) وما الى الخلاخيل من العقود والخواتم التي على شكل زهرة اللوتس أو المحلاة بعلامة إيب الفرعونية (أي القلب) والحلقان الذهبية التي على شكل عقود النصب ، والثياب المدنية المزركشة والمزخرفة بزخرفة فرعونية كالجعل المجنح أو علامة عنخ الفرعونية (أي الحياة) وهي بلا شك من آثار الحضارة المصرية الفرعونية .

كذلك ترك لنا الفن القبطي آثاراً منزلية كثيرة عليها بعض مناظر لأشخاص عراة أو لراقصين أو راقصات ، كما أن بعضها يشبه ما وجد في مقابر الفراعنة كالأواني الفخارية ، أو بعض الأواني المعدنية ، كالإناء الذي يشابه العلامة الفرعونية (حمص) أي ممدوح ، أو الملعقة المعدنية التي لها يد من حديد وتنتهي بشوكة وتشبه في شكلها تلك التي وجدت أخيراً في حفائر حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم بجهة حلوان وهي مصنوعة من العاج ويرجع تاريخها إلى أوائل عصر وحدة مصر الأولى تحت عرش ملك واحد .

كما أن البعض الآخر من الآثار القبطية عليه مناظر نيل عصره من طيور ، وأسماك أو نبات البردي ، أو التمساح أو المراكب والنيل بلا شك قوام حياة مصر في كل عصورها ، ولا علاقة لكل هذا بالدين المسيحي لا من قريب أو بعيد .

كما أن هناك آثاراً عديدة من العصر القبطي لمصريين لم تكن المسيحية ديانتهم . وقد استوحى هذا الفريق من المصريين الذين لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية بعد في فنهم مؤثرات غير مسيحية ، وهذا يدل على ان الفن القبطي كان فناً مشتركاً بين المسيحيين وغير المسيحيين من المصريين .

زد على ذلك أن على كثير من المباني رسوماً حيوانية كصيد الأسد أو الغزال أو الطيور أو مناظر لبعض نباتات مصر كالنخيل واللوتس والبردي والرمان . وان أصل الكثير من هذه الرسوم يرجع إلى مصر الفرعونية ، ويبين استمرار وحدة الفن المصري في عصوره المختلفة .

وفوق هذا عثر المنقبون على آثار قبطية هي عبارة عن أدوات زراعية كالفأس والشرشرة — ومصر بلاد زراعية — أو أدوات منزلية ، كالمرود والمكبر والمقبض ، أو أدوات الكيل ، والوزن ، أو أدوات الكتابة ، أو أدوات الطهي ، أو أدوات النسيج ، والكثير منها يرجع في أصله إلى مصر الفرعونية .

ولا داعي للقول بأن كل هذه الأشياء لا تمت الى الدين المسيحي بأي صلة مما يؤيد الرأي الذي نقول به ، وهو أن الفن القبطي تأثر بمؤثرات دنيوية (مدنية) فوق تأثره بالمؤثرات الدينية المعروفة ، فالفن في كل عصر وفي كل بلد إنما هو ترجمان للحياة في شتى نواحيها .

ويرجع كثير من الرسوم الجصية التي كانت تزين بها بعض المباني القبطية في أصلها الى نقوش فرعونية ، أو زينة فرعونية ، بل انها كانت تصنع بنفس الطريقة الفرعونية . وكذلك كان التصوير بالألوان على لوحات المومياء يرجع الى تطور العادات المصرية الفرعونية .

وهناك كثير من الرسوم التي وجدها العلماء مرسومة على قطع من الفخار تعبر في مرماها عن أشياء لا تمت للدين بصلة ما رغم أنها رسمت بعد أن أصبحت المسيحية دينا رسميا للدولة الامبراطورية الرومانية التي كانت مصر في القرن الرابع للميلادي إحدى أقوائها .

ومما يقطع بصحة رأينا تلك الرسوم الكثيرة التي وجدها العلماء على جدران بعض الكنائس والأديرة التي لا علاقة لها بالدين اطلاقاً ، وإنما هي ترمز إلى صور من الحياة المادية ، فمثلاً : ما علاقة عصفور يأكل عنباً (صورة رقم ٦) أو صور أشجار وفواكه وأزهار أو صور هندسية بالدين ؟

بل من الطريف أن القبطي لم تفته روح الدعابة والمرح التي ورثها عن أجداده قدماء المصريين ، إذ ضمن رسومه حكماً وأمثالاً كانت متداولة في مصر الفرعونية ولا زال بعضها مضرب الأمثال حتى وقتنا الحاضر . مثال ذلك لعبة القط والفار المرسومة على جدران أحد مباني بلويط

واذا ذهبنا مع هؤلاء العلماء مذهباً بعيداً لوجب القول بأن الفن القبطي (الفن البيزنطي

في نظرهم) وجد معاصراً لعصر المسيحي بمعنى انه لم يوجد قبل هذا العصر ما يسمى فنًّا قبطيًّا .

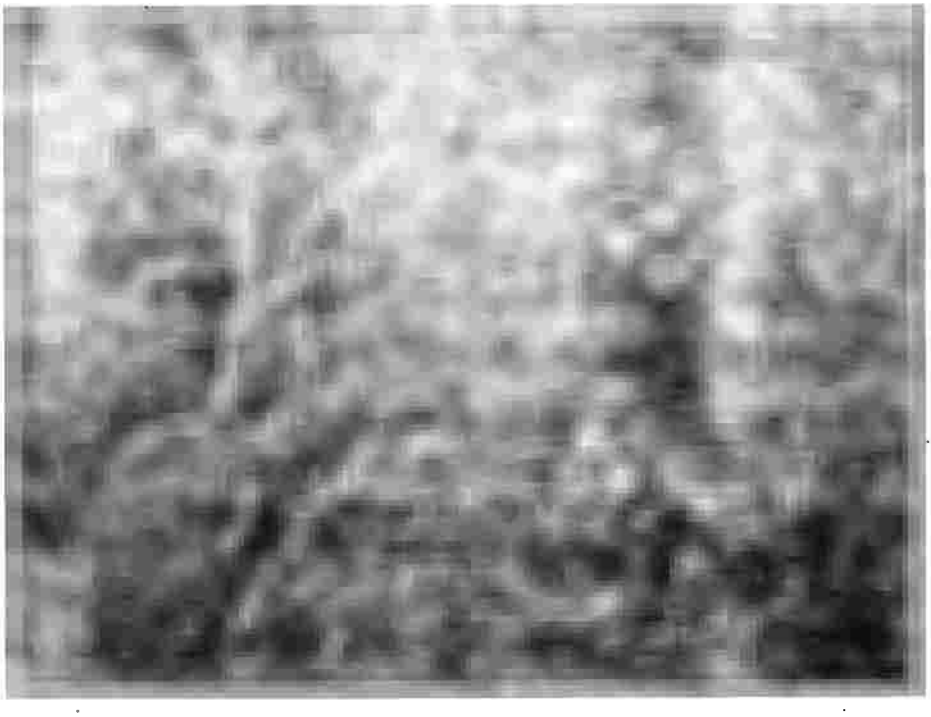

صورة رقم ٦ (تصوير المتحف القبطي)

ولكن اذا عرفنا أن الفنون التي نمت وازدهرت في أنحاء مصر أثناء الحكم اليوناني الروماني ، أثرت في الفن اليوناني الروماني نفسه ، وقد نقل اليونان والرومان في عمائرهم الكثير من أساليب العمارة الفرعونية وزخرفها ، وجب أن نخرج بنتيجة وهي أن الفن القبطي وجد قبل ظهور المسيحية بزمن طويل استطاع بتجديده نوعاً بدخول الاسكندر الأكبر مصر حوالي سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، حتى لا نخلط بين الفن القبطي المصري ، والفن القبطي الفرعوني كما يجب أن نسميهما .

فقد ثبت انه كان للمصريين في العصر السابق للمسيحية فن مجيد ونهضة فنية رائعة رنَّ صداها في كافة الأرجاء، وتأثرت بها سائر البلدان المجاورة .

ولا يمكننا بحال من الأحوال أن نوافق على رأي العلماء من أن الفن الذي ظهر في مصر في هذا العصر كان فنًّا يونانيًّا رومانيًّا خالص ، أو نوافق على رأي الفريق الآخر

من أن الفن الهيلنستي وهو النوع من اليوناني المتأخر ، وفن بعض الشعوب الشرقية كفارس وسوريا وبابل هو الذي ساد في هذا العصر في مصر

والآن وقد سقنا هذه الأمثلة العديدة والأدلة التي بيناها نستطيع أن نؤكد أن الفن القبطي ليس كما يقول العلماء فنًّا دينيًّا مسيحيًّا محضًا ، وانما هو فنٌّ مصريٌّ له مؤثراته وأغراضه الدنيوية ، كما أن له أغراضًا ومؤثرات دينية .

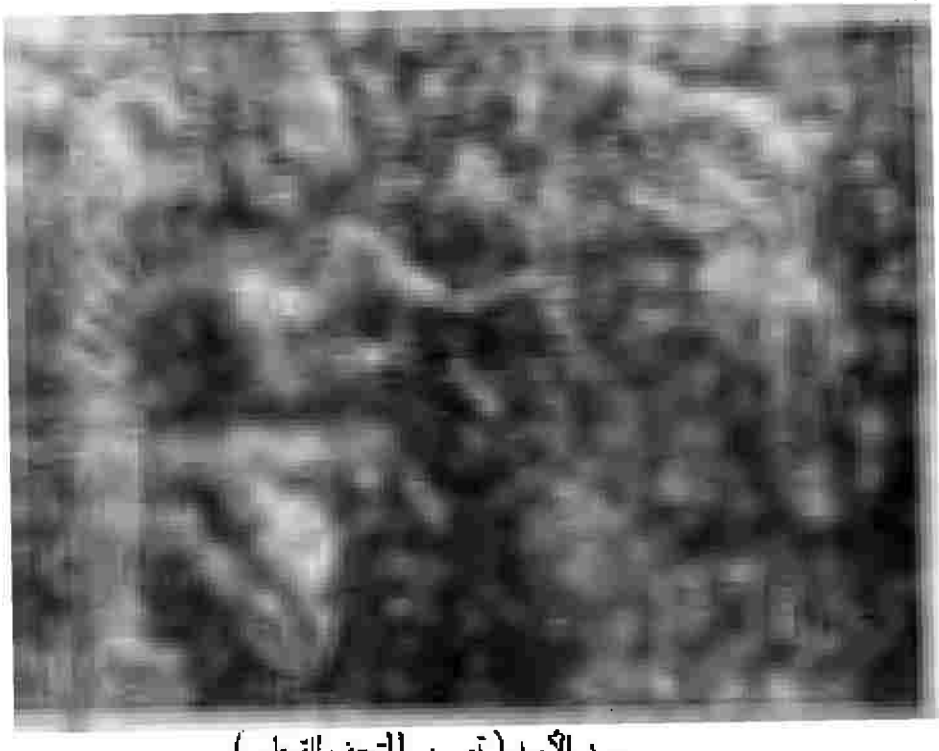

سيد الأسد (تصوير المتحف القبطي)

ومما يعزز قولنا هو تفرع اللغة القبطية الى لهجات منها : اللهجة البحيرية ، والصعيدية ، والأخميمية ، والفيومية ، التي تدل دلالة واضحة على التطور الاقليمي للغة المصرية القديمة .

ولم تؤثر اللغة اليونانية على القبطية الا من حيث بعض حروف الهجاء وبعض المفردات الدخيلة .

دكتور باتور ريب
الامين بالمتحف القبطي